

كلمة الحياة

آب/ أغسطس 2026

"تُعْظِمُ نَفْسِي الرَّبَّ" (لوقا 1: 46).

يقدم لنا لوقا، في الفصل الأول من إنجيله، الصفحة الوحيدة في العهد الجديد حيث بطلتا القصة هما امرأتان: مريم وأليصابات.

كانت أليصابات تعيش في قرية قرب أورشليم، على بُعد نحو 150 كيلومترًا من الناصرة. وها إن مريم، فور تلقيها بشارة الملاك بأنها ستصبح أم يسوع (لوقا 1: 26-38)، تنطلق في هذا السفر الطويل. لا نعرف الكثير عن مسيرتها، نعرف فقط أنها مضت مسرعة إلى الجبل. ولكن لم ذهبَت إلى هناك؟

ذهبت مريم لتشارك فرحتها هذه مع التي نالت من الله مثلها نعمة انتظار طفل، ولتكون بقربها وتساعدَها في الأشهر الأخيرة من الحمل. إنها قصة امرأتين، قصة أمومتين مستحيلتين. فمن غير أليصابات قد يفهمها، ومن غيرها يمكنها أن تشاركه هذه الخبرة؟ من هذا اللقاء انبثق نشيد التعظيم:

"تُعْظِمُ نَفْسِي الرَّبَّ"

كتب مارتن لوتر في تعليقه على نشيد التعظيم: "كلمات مريم تعبير عن حب عظيم وفرح حي، وهذا ما يفسر سبب سمو قلبها وحياتها في الروح. مريم لا تقول: أنا أعظم الله، بل تقول: تُعْظِمُ نفسي الرب؛ وكأنها أرادت أن تقول: حياتي كلها وحواسي جميعها مسنودة بمحبة الله".¹

إن الفعل "يعظم" أو "يجعل كبيراً" يكشف عن معنى الفرح الذي يثيره الاكتشاف أن الله أعظم مما قد يُتوقع. يقابل هذا الفرح تواضع عميق وإحساس عميق بالامتنان والشكر.

¹Martin Lutero, *Commento al Magnificat*, 1520, <https://www.associazionealec.it/wp-content/uploads/2017/09/1.3-Lutero-testo-commentomagnificat.pdf>.

وكما يشير إرميس رونكي Ermes Ronchi: "نشيد التعظيم هو إنجيل مريم، هو بشارتها السعيدة التي تبلغ الأجيال كلها". كرّرت فتاة الناصرة عشر مرات: "هو الذي صنع..."²، وكأنّه نوعٌ من شريعة جديدة، عشرٌ وصايا جديدة تقلّب منطقَ العالم رأسًا على عقب.

يبدو طبيعيًا أن نتساءل: هل ما زلنا نحافظ على روح الدهشة والانبهار في حياتنا اليومية وفي صلاتنا، أمام ما صنعه الله وما يستمرّ في صنعه؟ إذ بدون الانفتاح على ما هو جديد وما يحمله من مفاجآت، وبدون تلك الدهشة، يتحوّل الإيمان إلى صلاة مُتعبّة، تنطفئ تدريجًا وتصبح مجردَ عادةٍ اجتماعيةٍ³.

"تُعْظِمُ نَفْسِي الرَّبَّ"

نشيد مريم ليس مجردَ صلاةٍ تسبيحٍ داخليةٍ، بل هو تسبيحٌ نبويّ، يتميّز بالرجوع المستمرّ إلى نصوص الكتاب المقدّس⁴، ويُظهر اتجاه التاريخ بحسب قلبِ الله. إنّ تسبيحه يعني الاصطفاف مع الصغار، والإيمان بأنّ العالمَ يمكنه ويجب أن يتغيّر.

كلماتُ هذا النشيد تدعونا إلى فهم تدخّل الله الخلاصيّ في تاريخنا الشخصي والجماعيّ، انطلاقًا من خبرتنا الشخصية وصولاً إلى الخبرة الكونية، ومن اللحظة الحاضرة إلى السماوات الجديدة والأرض الجديدة التي تبدأها ثورة الإنجيل الاجتماعية.

"تُعْظِمُ نَفْسِي الرَّبَّ"

هذه الكلمات تدعونا نحن أيضًا إلى أن نجعل حياتنا تسبيحًا حيًّا، وأن نعترف كلّ يوم بـ"العظائم" التي يصنعها الله، وأن نوحدَ أصواتنا مع صوت مريم لنعلن أنّ الله صادقٌ وأمين، وأنّ رحمته تمتدّ من جيل إلى جيل، وأنّ ملكوته القائم على العدالة والمحبة بدأ يتحقّق في ما بيننا.

2Ermes Ronchi, *Magnificat, una finestra aperta sul futuro*, Avvenire, 12 agosto 2021.

3راجع البابا فرنسيس، *صلاة التبشير الملائكي*، ساحة القديس بطرس، روما، 4 تموز/ يوليو 2021.

4Cfr. Gérard Rossé, *Il Vangelo di Luca*, Città Nuova, 1992, p.69.

لقد أدركت كيارا لوبيك هذا البُعدَ الثوريَّ في نشيد مريم عندما كتبت للشباب: "اقرأوا نشيد التعظيم، وستجدون فيه أول وأقوى صفحة من صفحات العقيدة الاجتماعية المسيحية. فمن الذي سوف يُحقِّقها بالكامل ومتى؟"⁵

يبقى السؤال مفتوحًا ويخاطبنا نحن أيضًا. فعملُ الله لا ينبغي أن يظلَّ محصورًا في أعماق القلب، بل لا بدَّ أن يظهرَ في العلاقات، وفي الحياة المشتركة، وفي نسيج الأجيال القادمة.

إعداد باتريسيا ماترولا ولجنة كلمة الحياة

⁵Detti Gen, Città Nuova, Roma 1969, p.57 (4a ed. 1974).